وقد أضاف الحلف التعاوني الدولي مبدأين جديدين بعد دمج المبادئ من الثالث إلى الخامس وفق الرؤية القديمة في مبدأ واحد (الثالث وفق الرؤية الجديدة) وتعديل صياغة باقي المبادئ، وقد نص المبدأين الجديدين على:

- التعاون بين التعاونيات: تخدم التعاونيات أعضاءها بشكل أكثر فاعلية وتقوي الحركة التعاونية بالعمل معا، من خلال البنى المحلية، والقومية، والإقليمية، والعالمية.
- الاهتمام بالمجتمع: تعمل التعاونيات من أجل التنمية المستدامة لمجتمعاتها من خلال سياسيات موافق عليها من قبل أعضائها[١٧].

وتعتمد مبادئ التعاون تلك بالأساس على مجموعة من "القيم التعاونية" نص عليها الحلف التعاوني الدولي[١٨]وهي: العون الذاتي (بين أعضاء التعاونية)، والمسئولية الذاتية، والديمقراطية، والمساواة، والعدالة، والتضامن. وفي تقاليد مؤسسيه، يعتقد أعضاء التعاونية في القيم الأخلاقية للصدق والانفتاح والمسئولية الاجتماعية والاهتمام بشئون الآخرين.

الفصل الثاني
نشأة الأفكار والتجارب التعاونية وتطورها

المصرية خرجت من رحم و/ أو سارت بالتوازي جنبا إلى جنب مع تجربة أخرى للحزب الوطني هي تجربة ما سمي بـ" مدارس الشعب الليلية" (طالع في هذا الصدد على سبيل المثال: عبد الرحمن الرافعي، م س ذ، ص ص ١٠٧-١٠٨ و ص ص ١٤٥- ١٤٦)

[١٧] – طالع موقع الحلف: http://www.ica.coop/coop/principles.html

[١٨] – نفس المصدر السابق.

التعاون هو سلوك إنساني فطري لتوحيد جهود الأفراد في نشاط جماعي من أجل تحقيق مصلحة مشتركة. وهذا السلوك الإنساني الذي يعكس حاجة أفراد الجماعة مشاهد في كل العصور حتى في عصرنا الحالي، وإن كان قد اتخذ صورا مختلفة وفق اختلاف الثقافات، واختلاف التطورات التي لحقت بالمجتمعات البشرية على تعاقبها[١٩]. لكن هذه الفطرة وهذه العادات، وإن أمكن لها أن تساعد في توضيح المبادئ التعاونية، وبخاصة أخلاقيات التعاون، فإنها بعيدة عن أن تفسر لنا الحركة التعاونية الحديثة بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية، فتفسير هذه الحركة في صورتها الحديثة مرتبط بما شهده العالم من تطورات اقتصادية واجتماعية، وبخاصة في أوروبا مع بداية عهد الثورة الصناعية، فقد صاحب هذه الثورة مساوئ اجتماعية متعددة، ندد بها الكتاب والمفكرون، واتجه الفكر البشري لإيجاد نظام تتحقق فيه العدالة الاجتماعية. لكن ذلك لا يفسر تطور الحركة التعاونية ولا يحدد مسارها، فقد كان لآراء المفكرين التعاونيين الفضل في وضع الأسس الفلسفية التي قام عليها صرح التعاون، كما كان للتجارب التعاونية الرائدة أثرها الفعال في تدعيم الحركة التعاونية، حتى صارت من أهم الحركات الأهلية التي تؤثر وتتأثر بالاقتصاد القومي، مما دعا الحكومات إلى الاهتمام بتنظيم هذه الحركة فصدرت التشريعات التعاونية في بلاد متعددة لتقنين المبادئ التعاونية وتنظيم علاقات الحركة التعاونية بغيرها من التنظيمات الاجتماعية، والهيئات الرسمية، وبالأفراد المتعاملين معها[٢٠].

---

[١٩] – أحمد حسن البرعي، م س ذ، ص ١٤٤.

[٢٠] – نفس المصدر، ص ص ١٤٦– ١٤٧.

وقد بدأت الجمعيات التعاونية في الظهور خلال الثلث الأخير من القرن الثامن عشر بصورة تلقائية، ودون أي اهتمامات أيديولوجية، بل في صورة مجهودات من الطبقات الشعبية في سبيل استعادة الاستقلال الاقتصادي المفقود، ولكن منذ الربع الثاني من القرن التاسع عشر، اختلطت مجهودات الرواد التعاونيين، بالأفكار والمذاهب الاجتماعية الجديدة، وتطورت الأفكار والخبرات التي ساهمت في بلورة الحركة التعاونية وتطورها على المسارين:

- الفكري: في صورة أفكار ومبادئ تنادي بالعدل الاجتماعي وتقترح تنظيمات بديلة.
- والعملي: في شكل تجارب رائدة في مجال الحركة التعاونية[٢١].

حيث بدأت الجمعيات التعاونية بصورتها الحديثة في الظهور بين عمال النسيج، وبخاصة بين أولئك الذين يعملون في منازلهم على "الأنوال"، ذلك أن هؤلاء الذين يعتمدون على الصناعات المنزلية في كسب قوتهم، كانوا أول وأكثر من أضير من تطور الاقتصاد الرأسمالي والثورة الصناعية. ففي سبيل فتح الطريق لتسويق منتوجاتهم، أو الحصول على ما يلزمهم من مواد أولية أو مواد استهلاكية، كان عمال النسيج البادئين بإنشاء جمعياتهم التعاونية الإنتاجية والاستهلاكية على السواء.

ففي اسكتلندا أنشاء عمال النسيج أولى الجمعيات التعاونية في فينويك ١٧٦١، جوفان ١٧٧٧، دارفيل ١٨٤٠، وفي ليون بفرنسا ١٨٣٥، وفي روتشديل بإنجلترا ١٨٤٤، وفي شمنيتز بألمانيا ١٨٤٥.

[٢١] نفس المصر، ص ص ١٥٤– ١٥٥.

وكانت الجمعيات التعاونية عند نشأتها تستهدف على الأخص العودة إلى نظام الاكتفاء الذاتي (الذي كان يحققه الاقتصاد المعيشي) لأعضاء الجمعية، ومن ثم سعت لإقامة مجتمعات متكاملة يكون العضو فيها في نفس الوقت منتجا وعاملا ومستهلكا، وانحصرت التجارب والأفكار التعاونية في دائرة مؤداها خلق تلك المجتمعات، حلا للمشكلة الاجتماعية الناجمة عن وجود الوسيط والمرابي بين المنتج الصغير والمستهلك البسيط، ومن ثم انصبت الأفكار والتجارب على إلغاء هذه المرحلة الطفيلية من الدائرة الاقتصادية، وذلك بتضييق دائرة الإنتاج والاستهلاك، وجعلها مرحلة متصلة، لا انقطاع فيها ولا محل للوساطة[٢٢].

الأفكار والمفكرون التعاونيون

يرجع الفضل في نشر الأفكار التعاونية الحديثة في العالم إلى عدد من المفكرين من أبرزهم:

- روبرت أوين (١٧٧١-١٨٥٨): الذي أنار السبيل لتلاميذه ومريديه من أمثال وليم كنج وساهم بآرائه في تطوير الجمعيات التعاونية الاستهلاكية، حتى أخذت الصورة التي نعرفها في الوقت الحاضر، ولذلك فهو يلقب بـ"أبو التعاون" في إنجلترا، بل وصفه البعض بأنه أبو التعاون الحديث في العالم بصفة عامة، وقد ولد روبرت أوين في ١٤ مايو ١٧٧١ بمدينة نيوتن في عائلة رقيقة الحال، حيث كان الأب يعمل حطابا وتشتغل الأم بالزراعة، ومن سن الخامسة إلى التاسعة تزود بقدر بسيط من التعليم، وقدر أكبر من الثقافة الحرة من خلال القراءة في مكتبة

[٢٢] – نفس المصدر، ص ص ١٥٢– ١٥٤.

المدرسة والكنيسة، ومن سن التاسعة بدأت رحلة العمل مع أحد تجار القرية، ولم تنقطع لديه رحلة القراءة التي كان شغوفا بها[٢٣]. ويمكن بلورة الأفكار الرئيسية لأوين في:

- الدعوة إلى سياسة اجتماعية عادلة: فقد هيأ العمل المبكر له الوقوف على البؤس الذي تعانيه الطبقة العاملة، لذلك حرص على أن يولي عماله رعاية اجتماعية خاصة، فبدأ ذلك في مصنعه في نيولانارك بحيث كانت إدارته ترمي إلى : تنظيم العمل بشكل يؤدي للحصول على أكبر قدر من الإنتاج، والتنظيم الاجتماعي للعمل بتقديم كل المزايا الممكنة للعمال. لقد كان التقدم الاقتصادي، والتقدم الاجتماعي في نظر أوين وجهان لعملة واحدة، لذلك كان يستخدم جزءا من الأرباح التي يحققها في رعاية العمال اجتماعيا، وذلك عن طريق تحديد ساعات العمل، وزيادة الأجور، وتنظيم عمل الأحداث، وكفالة تعليمهم، وتوفير المساكن الصحية والسع والخدمات، بأسعار معقولة للعمال، ذلك أن كل رعاية اجتماعية للعامل، تجعله أكثر عطاء وقدرة على الإنتاج. ومن ثم فقد وجه ندائه لأصحاب الأعمال كي يحذو حذوه قائلا لهم "إنكم قد انصرفتم إلى رعاية الآلة الصماء حتى تحصلوا على أفضل النتائج، لكن الآلة الصماء لا تعمل إلا بالآلة الإنسانية التي هي أبدع وأدق تكوينا"،

[٢٣] – حول حياة روبرت أوين طالع: نفس المصدر، ص ص ١٥٧– ١٥٩.

غير أن دعوته لم تلق استجابة ومن ثم فقد بحث عن الأسباب الحقيقية للمشكلة الاقتصادية ورأي أن المشكلة هي في جوهر التقدم الفني (الآلة)، والسعي الدائب للربح، التي كلما تطورت حلت محل الأيدي العاملة، وزاد الإنتاج وزادت البطالة، مما يترتب عليه ضعف الطلب وزيادة العرض، ومن ثم اختلال السوق، ومن ثم فإن الحل هو في تصريف الإنتاج بزيادة الاستهلاك من خلال إيجاد عمل للعمال العاطلين في المجال الطبيعي وهو الزراعة[٢٤].

– المستعمرة التعاونية: قدر أوين أنه لا يمكن أن توجد سوق لتصريف الإنتاج وإيجاد عمل للعاطلين إلا بإقامة مزرعة جماعية يتم العمل فيها بالوسائل اليدوية وليس بالآلات حتى يجد العامل عملا يؤديه، واتجه لوضع فكرته تلك موضع التنفيذ حيث يتحقق التعاون في أكمل صوره، حيث يقومون بأنفسهم بإنتاج ما يلزم لاستهلاك الجماعة، لتحقيق الاكتفاء الذاتي، مع تنويع الإنتاج ليشمل الآلات والأدوات اللازمة للأعضاء، إضافة للمواد الغذائية، وتتكون كل مستعمرة من عدد يتراوح بين ٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ شخص، لا محل فيها للملكية الفردية، ولا لحاكم ومحكوم، واعتبارا من عام ١٨٢٠ بدأ أوين في إقامة تلك المعسكرات فبنى واحدة في نيو لا نارك ثم باعها عام ١٨٣٥ واتجه إلى أمريكا

[٢٤] – نفس المصدر، ص ص ١٦٠– ١٦٢.

وأنشأ مستعمرته في نيو هارموني والتي أطلق عليها جمعية الخدمات والزراعة، وتلتها تجارب أخرى في إنجلترا والمكسيك، ولكنها لم تلق نجاحا حيث لم يتقبل الأعضاء فكرة الملكية الجماعية، خاصة مع عدم معرفة الأعضاء بعضهم بعضا، وانتفاء روح الجماعة بينهم.

– إلغاء الربح: حيث رأى أن أساس المشكلة الاقتصادية هو سعي الرأسمالي الدائب لتحقيق أكبر قدر من الربح، مما يترتب عليه بيع السلع بأكبر من تكاليف إنتاجها، أي بسعر أكبر من "السعر العادل" لذلك انتهى إلى أن الربح غير عادل، فدعا إلى التبادل العادل، حيث يعتمد تقدير قيمة السلعة على قدر العمل الإنساني المبذول في إنتاجها، ومن ثم فلابد من إلغاء الربح ووسيلة تحقيقه "النقود" وتبادل السلع على أساس قيمتها الحقيقية وهي قيمة العمل اليدوي والفكري المبذول فيها، ومن ثم فقد نادى بإنشاء محلات بتم فيها التبادل العادل للسلع، وإخلال العمل فيها محل النقود، وقد أنشأ عام ١٨٣٢ محلا أساسه جمعية تعاونية، لكن التجربة لاقت صعوبات نتيجة لالتواء سلوك بعض العمال في تقدير قيمة منتجاتهم، وعجز المحل عن تحقيق التوازن بين العرض والطلب، ومن ثم أغلق المحل عام ١٨٣٤، ولكن فشل الفكرة لا

يقلل من قيمتها التي تدور حول إلغاء الوسيط وإلغاء الربح الذي يحققه[٢٥].

- وليم كنج (١٧٨٦- ١٨٦٥): انطلق كنج في أفكاره من فكرة مؤداها "أن مصلحة الطبقة العاملة تكمن في تجميع القوة الشرائية لأكبر مجموعة ممكنة حتى تتمكن من التأثير على الأسعار"، فالتجارة لديه هي سبيل تراكم الأرباح، وحل المشكلة الاجتماعية لا يتأتى بتنظيم الإنتاج بل بتنظيم التجارة ، ومن ثم بدأ في وضع أفكاره موضع التنفيذ بإنشاء مجموعة محلات الاتحاد كان أولها في برايتون عام ١٨٢٧، وتمكن في فترة وجيزة من إقامة ٣٠٠ محل كانت أقرب للجمعيات التعاونية الحديثة من محلات أوين، حيث كانت عبارة عن مخازن تقيمها جمعيات من العمال، برأس مال مشترك، وبتمويل ذاتي من أعضاء الجمعية ويقومون بالبيع لأنفسهم، ليوفروا أرباح تجار التجزئة، وقد نجح كنج في جمع أعضاء محلاته في جمعية عمومية سنة ١٨٣١، غير أن تجربته باءت بالفشل نظرا لضآلة رأس مال هذه المحلات وضعف القوة الشرائية لأعضائها، ونتيجة لعدم توزيع الأرباح التي تحققها المحلات للاحتفاظ بها كرأس مال جماعي من أجل إنشاء مستعمرات زراعية، يعمل فيها الأعضاء ليتحرروا من أصحاب الأعمال، ومن ثم لا يشعر العضو بمنفعة تعود عليه من الاشتراك. وقد أصدر كنج أول مجلة للتعاون في العالم سنة ١٨٢٨ أسماها التعاوني صدر منها ٢٨ عدد ضمنها أهم أفكاره حول المشكلة الاجتماعية ودور الحركة التعاونية في حلها، وقد

[٢٥] – نفس المصدر، ص ص ١٦٢– ١٦٨.

بث فيها أفكاره حول التعاون باعتباره الكفيل وحده بضمان استقلال الطبقة العاملة، التي نادى بتحريرها من الاعتماد على المساعدات خاصة الحكومية، والاعتماد بدلا من ذلك على مواردها الذاتية، ولذلك رفع شعار الاعتماد على النفس الذي يعد من دعائم الحركة التعاونية الآن. وبين طريقة تكوين جمعية تعاونية من خلال ادخار مبلغ بسيط يكون نواة لرأس المال الذي يستخدم في الحصول على الضروريات، أما فائض المعاملات فيستخدم في تكوين رأس مال جماعي يستخدم لإنتاج ما يلزم من سلع، ويتجاوز دور الجمعية إلى التنمية الاجتماعية ورفع المستوى الثقافي للأعضاء دون الاكتفاء بالدفاع المادي عنهم ضد الاستغلال[٢٦].

- شارل فورييه (١٧٧٢- ١٨٣٧)[٢٧]: يحتل فورييه في مجال الفكر التعاوني في فرنسا، نفس المكانة التي يحتلها أوين في إنجلترا، بل نجد أن أفكارهما تتلاقى في بعض الجوانب. غير أن فورييه كان يعيبه أنه كان يطلق لخياله العنان، ويغرق في التفاصيل، ويرسم الصور الشاعرية لكل ما يعرض له، محاولا تصور أفضل الظروف الفكرية والمادية والمعنوية اللازمة لتغيير الطبيعة البشرية وتهذيبها، والوصول إلى درجة خلقية يمكن معها حل المشكلة الاجتماعية، وتتبلور أهم أفكاره حول المحاور التالية:

– المستعمرة التعاونية: صاغ فورييه نظريته في حل المشكلة الاجتماعية في كتاب له أصدره عام

[٢٦] – نفس المصدر، ص ص ١٦٨– ١٧١.
[٢٧] – طالع بالتفصيل حول فورييه نفس المصدر، ص ص ١٨٣– ١٩٠.

١٨٨٢ بعنوان: "لائحة الجمعية الاستهلاكية الزراعية"، وقد أورد في كتابه هذا وصف تنظيم اجتماعي معقد عبارة عن مستعمرة تعاونية يتراوح عدد أعضائه ما بين ٤٠٠- ٢٠٠٠ عضو يمثلون جميع الطبقات والمهن والصفات البشرية، وتقام هذه الجمعية على مساحة من الأرض تتراوح بين ٤٠٠- ٢٠٠٠ هكتار، بحيث يكون لكل عضو هكتار من الأرض، ويرى أن التجانس بين الأعضاء ووحدة المصالح بينهم تنفي الحاجة إلى سلطة سياسية عليا، وتقوم الجمعية بإنتاج ما يلزم الأعضاء من منتجات زراعية وصناعية، حيث توجه ربع قوة العمل للعمل الصناعي، والباقي للعمل الزراعي[٢٨].

- العمل الجذاب: وهي من أهم أفكار فورييه، حيث يرى أنه كان العمل وما زال التزام يكره المرء على أدائه، إما بدافع كسب لقمة العيش، أو تحقيق الربح، أو باعتباره واجب اجتماعي، ولا يجب أن تظل النظرة للعمل على هذا النحو، بل ينبغي أن يصبح العمل متعة، ويمكن تحقيق ذلك إذا نظم العمل على نحو يستبعد الإرهاق والملل وفق الشروط التالية: نقل العمل من المدن إلى الحقول حيث المناظر الخلابة، مع شروط صحية للعمل، أن يعمل كل فرد باعتباره شريكا في العمل الجماعي وفي ناتجه، بحيث تستبعد نهائيا فكرة

[٢٨] - نفس المصدر، ص ص ١٨٤- ١٨٦.

العامل الأجير، ليحل محلها العامل الشريك، مع ضرورة تنويع العمل الذي يقوم به كل فرد، مع ضرورة تقسيم العمل لما يناسب بحسب السن والجنس، وأن يتم العمل في جماعات متجانسة تتلاقى بالاختيار الحر لأعضائها.

– توزيع الناتج: اقترح فورييه توزيع ناتج العمل في المزرعة الجماعية على النحو التالي: ١٢/٥ للعمل اليدوي، ١٢/٤ لرأس المال، ١٢/٣ للخبرة والمهارة (أي العمل الذهني المسخر لخدمة الإنتاج). بحيث يكون لكل عضو الحق في المساهمة بقسم أو آخر من هذه الأقسام، كل حسب ظروفه وإمكانياته، ومن ثم يحصل على حصة من فائض هذا النظام الجماعي تقابل ما قدمه من عمل أو رأس مال أو خبرة[٢٩].

– التطبيقات العملية لأفكار فورييه: حاول بعض من تأثروا بفكر فورييه تطبيق أفكاره، لكن تجاربهم باءت بالفشل إلا واحدة وهي التجربة التي قام بها أندريه جودان (١٨١٧– ١٨٨٨) وحققت نجاحا منقطع النظير حتى يومنا هذا في فرنسا، كان جودان عاملا في مصنع للحديد والصلب، وأحس بمعاناة الطبقة العاملة، وعاش ظروفها القاسية منذ طفولته، لذلك ما إن اعتلا السلم الاجتماعي وامتلك مصنعا لأجهزة التدفئة عام ١٨٥٩ حتى سارع بتحويل مصنعه

[٢٩] – نفس المصدر، ص ص ١٨٦– ١٨٧.

من الملكية الفردية إلى مستعمرة تعاونية، تضم بالإضافة للمصنع حديقة واسعة أقيم عليها البناء الاجتماعي المشترك، حيث يقطن به العاملون في المصنع، كما تضم مدارس للأطفال ومسرح وجمعية تعاونية، وقد قام بإشراك العاملين في رأس المال عن طريق شرائهم الأسهم التي قام بتوزيعها عليهم، وتولى خصم ثمنها من الأرباح، وكان الربح يوزع كالتالي: ربعه لتكوين احتياطي، وربعه للإدارة، والنصف الباقي توزع على رأس المال والعمل، وكان العمال لا يحصلون على أرباح، حيث كانت تستخدم أنصبتهم في سداد قيمة الأسهم، والذي كان من المقرر أن ينتهي في ١٩٠٢، لكنه حينما توفي وجدوه قد أوصى بكل المستعمرة للجمعية التعاونية التي أصبحت ملكية تعاونية للأعضاء، وعلى الرغم من اختلاف تفاصيل فكرته عن فكرة فورييه إلا أن الثابت أن تأثر بأفكاره، وعلى الرغم من دمار المستعمرة في الحرب العالمية، إلا أنها أعيد بناؤها وتعد الآن من أشهر التعاونيات في العالم[٣٠].

- لويس بلان (١٨١٢- ١٨٨٢): كان بلان رجل سياسة ومفكر اجتماعي في آن واحد، فاستطاع أن يصوغ نظرياته في ضوء الواقع العملي، وجاءت أفكاره متسمة بالواقعية، مما جعل لها تأثيرا كبيرا في صفوف العمال، حتى يعزو معها

[٣٠] - نفس المصدر، ص ص ١٨٨- ١٨٩.

الكتاب نجاح الجمعيات التعاونية للعمال في فرنسا إلى الأفكار التي نادى بها بلان، ومنها:

- مبادئ تنظيم العمل: عرض بلان أهم آرائه في كتيب شهير له ظهر عام ١٨٤٠ بعنوان: تنظيم العمل، وقد كان وضوح الرؤية لديه ودقة كتاباته سببا في نجاح هذا الكتيب ورواجه، وقد صدر طبعته التاسعة الصادرة عام ١٨٥٠ بقوله "إن حل المشكلة الاجتماعية الناجمة عن النظام الاقتصادي الحالي لا يتصور إلا عن طريق تنظيم العمل بواسطة الجمعيات" (ويقصد بصلك الجمعيات الإنتاجية للعمال)، حيث كان يرى أن سبب المشكلة الاجتماعية الرئيسي هو التنافس الضاري الذي عرفه النظام الاقتصادي الرأسمالي، لذلك كانت أفكاره ترمي إلى القضاء على هذه المنافسة، وإقامة نظام يهدف إلى تحسين الظروف المادية والمعنوية للكافة عن طريق التعاون بين أفراد الطبقة العاملة، وتنظيم الإنتاج بواسطة جمعيات عمالية، لذلك يدعو إلى إقامة نظام اقتصادي جديد يسود فيه التعاون بين المنتجين ويحظى كل فرد فيه بالحق في أن يجد عملا يتعيش منه، ونواة هذا النظام هي "الورشة الاجتماعية" وهي عبارة عن جمعية عمالية للإنتاج تتكون من العاملين في صناعة واحدة، وتقوم على أساس ديمقراطي، وعلى روح التضامن الأخوي بين أفراد الجمعية، ولكن لأن الطبقة العاملة لن يكون

بمقدورها تدبير الأموال اللازمة لإنشاء هذه الورش، فإن على الدولة أن تمد العمال في البداية بالأموال اللازمة، ويكون المشروع في عامه الأول تحت إدارة مدير تعينه الحكومة، فإذا اتضح أن العمال أصبحوا على درجة من الوعي والكفاءة تمكنهم من إدارة المشروع انتقلت الإدارة إلى لجنة عمالية يتحدد أعضاؤها بالانتخاب، وتتولى اللجنة توزيع العمل وتحديد ساعاته، ومراجعة حساباته، وتوزع الأرباح على ٣ حصص حصة لرد رؤوس الأموال المقترضة من الدولة، وحصة توزع بالتساوي على الأعضاء، وما يتبقى يخصص كاحتياطي لتجديد آلات الورشة ولإنشاء ورش جديدة، وتؤدى الأجور "من كل بحسب قدرته ولكل حسب حاجته".

– التطبيقات العملية: استفاد بلان من كونه أحد رجال ثورة ١٨٤٨ في فرنسا، ومن ثم أنشأ أول ورشة وفقا لأفكاره في نفس العام بباريس لتقوم بإعداد ملابس الحرس الوطني، وزاد عدد أعضاء الورشة من ٥٠ إلى ٢٠٠٠ عضو، ومن ثم أنشأت الحكومة ورشة أخرى لإمداد الجيش بما يحتاجه من منتجات جلدية، وثالثة تمد بلدية باريس بالمنسوجات، حتى وصل عدد الورش إلى مائة، وقد أنشأت الحكومة "اللجنة الحكومية للعمال" أعدت خطة متكاملة لتمويل النظام الاقتصادي الذي نادى به بلان وفوريبه، وقد كان من

المتوقع أن يحقق البرنامج دفعة قوية لنظام الورش الإنتاجية، لكن الأحداث السياسية التي عرفتها فرنسا أودت بالمكانة السياسية التي كان عليها بلان، فواجهت الورش صعوبات أدت إلى غلقها واحدة تلو الأخرى[٣١].

التجارب التعاونية الرائدة:

في ظل التطورات السياسية والاقتصادية بدأت محاولات وضع أفكار المصلحين الاجتماعيين موضع التطبيق، ومن ثم ظهرت أولى التجمعات التعاونية وبخاصة الجمعيات التعاونية الاستهلاكية. وظهرت "المخابز التعاونية" لضمان الخبز بأسعار معقولة، وبصفة مستمرة، فظهر في جنيف سنة ١٨٧٣ مخبز المعونة المتبادلة، وفي فرنسا ظهر مخبز المعونة الصادقة سنة ١٨٣٩، وبعض الجمعيات التعاونية الإنتاجية في فرنسا. وقد تمخض امتزاج الأفكار السياسية والاجتماعية، بالتنظيمات الشعبية والنقابية والتعاونية في القرن التاسع عشر عن مولد "الحركة التعاونية المنظمة" في شكل تنظيمات تعاونية توالت في الظهور[٣٢]:

- **المتجر الاجتماعي الصادق**: يرجع الفضل في إنشاء هذا المتجر إلى ميشيل دوريون وكان من أتباع سان سيمون، ولكنه تحول عنه إلى أفكار فورييه، وقد لخص أهم أفكاره التعاونية في كتاب له بعنوان: "ميثاق الصناعة والتنظيم السلمي للعمل والتجارة" أشار فيه إلى "أن السبب الحقيقي لشقاء

[٣١] – نفس المصدر، ص ص ١٩٣– ١٩٨.
[٣٢] – نفس المصدر، ص ص ٢٠١– ٢٠٢.

الطبقات الكادحة يأتي من سوء تنظيم الإنتاج وتوزيع الدخول (الثروات) وعلاج ذلك، هو التنظيم السلمي للتجارة والصناعة" وفي سبيل ذلك اقترح إنشاء تنظيم صناعي وتجاري في آن واحد، ولكن مشروعه هذا لم يلق نجاحا، خاصة وأنه لقي محاربة من جانب التجار ورجال الأعمال، لذلك فكر دوريون في إنشاء جمعية استهلاكية كوسيلة لمعالجة الآثار الاجتماعية التي ولدتها الثورة الصناعية، وذلك في عدة مقالات نشرها بمجلة المرشد أعوام ١٨٣٤-١٨٣٥ وبين الفكرة الأساسية من إنشاء الجمعية قائلا: لقد حان الوقت لكي تكتشف الطبقة العاملة وسائل فعالة وعملية لاستخدام قوتها في مقاومة النظام الاجتماعي السائد وما يسوده من سوء تنظيم الصناعة والتجارة...إن العمال يعرفون باسم المنتجين، ولكن هل هذا هو دورهم الوحيد في العجلة الإنتاجية؟ لا، فبالإضافة لهذه المهمة، يلعبون دورا آخر لا يقل أهمية، إنهم أيضا المستهلكين وفي هذه الصفة تكمن قوة الطبقة العاملة وبهذه الصفة يمكن للعمال أن يعملوا على تحقيق الإصلاح الاجتماعي المنشود. وانطلاقا من هذه الفكرة أنشأ دوريون المتجر الاجتماعي الصادق عام ١٨٣٥ بمدينة ليون وقرر أن يتم توزيع الفائض بطريقة متساوية على العناصر الآتية: رأس المال، المستهلكين بنسبة تعاملهم مع الجمعية، المصروفات الإدارية، الرعاية الاجتماعية، وقد استمرت التجربة ٣ سنوات، تمكن فيها من إنشاء سبع محلات على هذا النمط، لكن التجربة توقفت بسبب انعدام التشريع الملائم لحمايتها، ولموقف الحكومة العدائي منها، وبسبب الأزمة التي أصابت الحياة في مدينة ليون،

كما أن التجربة كانت نبتا غريبا على المجتمع الفرنسي في ذلك الوقت، حيث لم تعرف فرنسا تجربة تعاونية جانحة نحو الانتشار إلا حوالي عام ١٨٨٠، وكان الاهتمام منصبا قبل ذلك على جمعيات العمال الإنتاجية[٣٣].

- **تجربة رواد روتشديل:** لم تكن تجربة رواد روتشديل هي التجربة التعاونية الأولى، ولم يبتدع رواد روتشديل المبادئ التعاونية، ولكن إليهم يرجع الفضل في وضع هذه المبادئ موضع التنفيذ والتمسك بها على نحو حقق لتجربتهم نجاحا منقطع النظير فاستحقوا بذلك الشهرة التي نالتها تجربتهم. ففي إحدى أمسيات شهر نوفمبر عام ١٨٤٣ اجتمع عدد من عمال الغزل والنسيج بمدينة روتشديل بولاية لانكشير الإنجليزية للتشاور في وسيلة للخلاص من مشاكل الطبقة العاملة نتيجة للتطور الرأسمالي والمدنية الصناعية، ورأوا أن حل مشاكلهم لن يتأتى إلا عن طريق العمل الاقتصادي تأثرا بأفكار كنج وفي أول اجتماع عقدوه ووجه اقتراحهم بإنشاء محل تعاوني استهلاكي بمعارضة من جانب بعض العمال بسبب ما لقيته التجارب التعاونية السابقة من فشل، لكن رواد روتشديل كانوا قد عقدوا العزم على المضي في تنفيذ مشروعهم واضعين نصب أعيتهم أن فشل التجارب السابقة لا يعود إلى "طبيعة" المشروع التعاوني، بقدر ما يعود إلى سوء التنفيذ والإدارة وعدم التمسك بالمبادئ التعاونية. واستغرق الأمر منهم عاما كاملا حتى نجح الأعضاء وكان عددهم ٢٨ عضوا في جمع ٢٨ جنيها إسترلينيا حتى يتمكنوا من وضع

[٣٣] – نفس المصدر، ص ص ٢٠٣– ٢٠٥.

مشروعهم موضع التنفيذ. وكانت الأهداف التي يرمون إلى تحقيقها تبدو في ذلك الوقت أحلاما بعيدة المنال بالنظر لإمكانياتهم. وقد افتتحوا أول محل تعاوني لهم في ٢١ ديسمبر عام ١٨٤٤، حيث استأجروا محلا متواضعا في أحد الأحياء الشعبية بإيجار سنوي ١٠ جنيها إسترلينية وبدأت الجمعية تمارس عملها ببيع بعض أنواع البقالة المحدودة، وكانوا يتناوبون العمل بالمحل حسبما تتسع أوقات فراغهم من أعمالهم الخاصة. وسرعان ما حقق المشروع نجاحا منقطع النظير، حيث لم يمض على افتتاحه أكثر من ست سنوات حتى كان قد استطاع أن يمد الأعضاء بكافة ما يلزمهم من مواد استهلاكية، بل ونجح في الحصول على بعض السلع على نحو مكن الرواد من التوريد لجمعيات أخرى ناشئة على غرار جمعية روتشديل ولعل تشارلز جيد قد عبر بوضوح عن مدى نجاح التجربة حين قال "إن المتأمل في لوائح الجمعية يلاحظ دقة واضعيها وأن التجربة أثبتت — حتى بعد مضي نصف قرن من الزمان– أن كل الجمعيات التي أنشئت لم تفعل سوى الاقتداء حرفيا بتلك اللوائح بحيث لا يتردد المرء في أن يقرر أن تلك التجربة تعد من أهم مظاهر التطور الاقتصادي وأن تطور النظام التعاوني لم يكن وليد فكر بعض المصلحين، وإنما وليد التجربة الشعبية"، ويرجع نجاح جمعية رواد روتشديل إلى اللوائح التي وضعها هؤلاء بما تضمنته من مبادئ واضحة ومن تنظيم محكم. وبعد مرور ما يزيد عن قرن ونصف من الزمان ما زالت المبادئ التي أرساها رواد روتشديل

هي المبادئ التعاونية التي تسير عليها في الوقت الحاضر كل المنظمات التعاونية[٣٤].

- **جمعيات التسليف التعاونية في ألمانيا (شولز– رايفايزن)**[٣٥]: بدأت الحركة التعاونية تعرف طيرقها إلى ألمانيا حوالي ١٨٤٦– ١٨٤٧، ويرجع الفضل في نقل الأفكار التعاونية إليها إلى فيكتور أوبير الذي تنقل بين إنجلترا وفرنسا ودرس الحركة التعاونية، ثم عاد إلى ألمانيا عام ١٨٤٧، وقام بنشر المبادئ التعاونية عن طريق الكتابات التي أصدرها، والتي كان يركز فيها على أن التعاون يعد أحد الوسائل الفعالة للقضاء على المشكلة الاجتماعية. وقد تطورت الحركة التعاونية في ألأمانيا بشكل سريع، حيث بلغ عدد الجمعيات التعاونية عام ١٨٦٢ حوالي ألف جمعية منها ٥٥٠ جمعية للتسليف تعرف باسم "بنك الشعب"، حيث انتشر فيها المرابون الذين أرهقوا الأهالي بالفوائد وهنا تعرض للمشكلة اثنان من المصلحين الاجتماعيين هما شولز ورايفايزن، اللذان قاما كل في مجال مستقل بحل مشكلة الإقراض ومد الحرفيين وصغار التجار والفلاحين بما يحتاجونه من أموال.

– شولز ديلتش (١٨٠٠– ١٨٨٣): ويعد منشء الحركة التعاونية في ألمانيا وبخاصة جمعيات التعاون للإقراض، وقد ولد شولز في عائلة أغلبها من رجال القانون، فدرسه وتقلد عدة مناصب قضائية،

[٣٤] – طالع نفس المصدر، ص ص ٢٠٦– ٢١٧، والمبادئ التي أوردها المؤلف للجمعية هي: الشراء والبيع نقدا، البيع بسعر السوق، العائد على المعاملات، وديمقراطية الإدارة، والباب المفتوح والحياد الديني والسياسي، والدور الاجتماعي للجمعية (طالع تفاصيل المبادئ من ص ٢١١ إلى ص ٢١٦.

[٣٥] – نفس المصدر، ص ص ٢١٧– ٢٢٥.

ولعب دورا خيريا في فترة القحط عامي ١٨٤٦ و ١٨٤٧، مما جعله يحوز ثقة أهل بلدته فاختاروه ممثلا لهم في الجمعية الوطنية البروسية عام ١٨٤٨، وترجع أولى أعمال شولز التعاونية إلى عام ١٨٤٩، حينما أنشأ صندوقا للمعونة في حالات المرض والوفاة، وجمعية للتجار بقصد تزويدهم بالمواد الأولية تقوم على أساس المسئولية التضامنية بين أعضائها، لكن أهم أعماله كانت جمعيات الإقراض التعاونية التي أنشأها وعرفت باسمه، والتي ابتدع فيها مبدأين هما: تكوين رأس مال خاص لها من أنصبة يكتتب فيها الأعضاء، وتقرير المسئولية التضامنية بين الأعضاء، كما أنه يعتبر صاحب مشروع قانون التعاون الألماني الذي صدر نتيجة مجهوداته في ٢٧ مارس سنة ١٨٦٧.

– فريدريك رايفايزن (١٨١٨– ١٨٨٨): وقد نشأ في عائلة ريفية، وتلقى تعليمه في أوقات فراغه من الزراعة على يد قسيس الناحية، عين عمدة لبلدة فياربوش، واشترك خلال المجاعة في تنظيم تموين الدقيق وصناعة الخبز، وعندما انتقل إلى فلامسفلد عام ١٨٤٩ كون جمعية لمساعدة المزارعين المحتاجين بهدف محاربة التجارة الاستغلالية للماشية، ثم ألحق بها صندوقا للادخار، فتحولت الجمعية من صندوق للمعونة إلى مؤسسة للإقراض والإدخار، وفي عام ١٨٥٤ وكان يشغل منصب عمدة هدسدرون أنشأ جمعية للاقتراض

وأرسى مبادئها، وما زالت هذه الجمعيات تعمل حتى اليوم.

ويمكن المقارنة بين جمعيات شولز ورايفايزن على النحو التالي[٣٦]:

البند	جمعيات شولز	جمعيات رايفايزن
هدف الجمعيات	إقراض صغار الصناع والتجار في المدن	إقراض المزارعين في القرى
فكرة الاعتماد على النفس	قامت على مبدأ المساعدة الذاتية واستبعاد الالتجاء إلى الدولة ومنع التدخل الخارجي من غير ذوي الشأن	قامت على مبدأ المساعدة الذاتية واستبعاد الالتجاء إلى الدولة مع اشتراك أهل الخير في تقديم المساعدات للجمعية
تكوين رأس مال الجمعية	من اكتتاب الأعضاء، الذي يسدد على أقساط، ويضاف لها المال الاحتياطي الذي يتكون من احتجاز جانب من الأرباح	لم يكن يعتمد في البداية على أنصبة الأعضاء، وكان يجيز الانضمام دون إلزام بتأدية حصة من رأس المال، فألزمه القانون بذلك، فخفض قيمة

[٣٦] – الجدول من وضع القائم بالدراسة بناء على المعلومات الواردة في المصدر.

		السهم.
فائدة رأس المال	توزيع فائدة لرأس المال تدفع من الأرباح	لا يوزع أي أرباح، ويوجه الفائض للاحتياطي والأعمال الاجتماعية
مسئولية الأعضاء	مسئولية محدودة بحدود الأنصبة المقدمة في رأس المال	مسئولية تضامنية غير محدودة (فالفرد مسئول عن الجماعة، والجماعة مسئولة عن الفرد)
إدارة الجمعية	تدار وفقا لقواعد المشروعات الاقتصادية العادية، ويحصل الموظفون على مرتبات تتناسب مع الأعمال	تؤدى جميع الوظائف بالمجان، فيما عدا وظيفة المحاسب
نطاق العمليات	الاقتصار على العمليات المصرفية، دون التجارية	القيام بالعمليات المصرفية والتجارية
سياسة الإقراض	قروض قصيرة الأجل لمدة ٣ شهور مع جواز تجديد المدة	توعين من القروض: قروض الاستغلال: ترد بمجرد ظهور المحصول

obeikan.com

		قروض عقارية: تقدم برهون تأمينية وتسدد على أقساط سنوية
الصلة بالاتحادات المركزية	لا تميل إلى تكوين اتحادات مركزية إلا بقصد توحيد الخطط والبرامج	الاتجاه لإقامة نظام مركزي ضمانا لحسن سير العمل، لذلك أنشأ البنك التعاوني المركزي للراين عام ١٨٧٢ والبنك المركزي لجمعيات رافايزن عام ١٨٧٦ لتكون مؤسسات مركزية للإقراض تقوم بعمل البنوك لحساب الجمعيات التعاونية

- **التجـــارب التعاونيـــة فـــي إيطاليـــا (لـــوتزاتي–وولمبورج)**[٣٧]: انتشرت الحركة التعاونية في إيطاليا اعتبارا من عام ١٨٥٠، حيث أنشئت عدة جمعيات تعاونية استهلاكية وجمعية للإنتاج التعاوني في تورينو، وقد أخذت الحركة في الازدهار بقيادة

[٣٧] – نفس المصدر، ص ص ٢٢٥– ٢٢٩.

obeikan.com

كل من لوتزاني وفيجانو، وكلاهما كانا من أتباع شولز ديلتش، وإليهما يرجع الفضل في إصدار أول تشريع تعاوني في عام ١٨٨٢، وفي أول مؤتمر تعاوني عقد في إيطاليا عام ١٨٨٦ تقرر إنشاء أول اتحاد تعاوني، ومنذ هذا التاريخ أخذت الحركة التعاونية تتطور سريعا في إيطاليا، خاصة الجمعيات التعاونية الزراعية، وجمعيات التسليف التعاونية، ويرجع الفضل في تطور هذا النوع من الجمعيات إلى جهود كل من لوتزاتي وولبورج:

- لويجي لوتزاتي (١٨٤١- ١٩٢٧): كان لوتزاتي أستاذا جامعيا ورجلا من رجال السياسة وله عدة مؤلفات في الاقتصاد والمالية العامة، وقد أنشأ عامي ١٨٦٤، و١٨٦٥ جمعيتين تعاونيتين للإقراض على غرار جمعيات شولز -الذي التقى به أثناء دراسته في برلين- تحت اسم البنك الشعبي، وعلى الرغم من تأثره بشولز إلا أنه حور قواعد العمل بما يتفق والظروف الخاصة ببلده: حيث لم يغفل مطالب سكان المزارعين في القرى بالرغم من وجود البنك بالمدينة، اكتفى بحصص تكاد تكون رمزية في رأس المال، واعتمد سياسة الإقناع كحافز للاشتراك، واهتم بتكوين احتياطي قوي باستقطاع جزء من الأرباح، واتخذ شعار "الأمانة والشرف يغطيان نقص رؤوس الأموال" لذلك ركز على التأكد من حسن سمعة الأعضاء، وحسن اختيار القائمين على البنك، واشتراك الأعضاء في إدارة البنك، والموضوعية في منح القروض والرقابة الفعلية

على استخدامها، وعلى عكس نظام ديلتش كانت إدارة البنك تطوعية يقوم بها الأعضاء دون مقابل، وتقديرا للحالة الاقتصادية في إيطاليا لم يكن يمانع من منح بعض القروض دون فائدة، لمن تقتضي حالتهم ذلك، وقد نجح لوتزاتي في نشر الوعي التعاوني بين أعضاء البنوك الشعبية وسرعان ما انتشرت حركته انتشارا واسعا وأدت خدمات جليلة للأوساط الزراعية ونجح عام ١٩٠٧ بمعاونة الحكومة في إنشاء "المؤسسة المركزية للإقراض" لمد الجمعيات التعاونية بما تحتاجه من قروض.

– ليون وولمبورج (١٨٥٩– ١٩٣٢): عمل وولمبورج على إنشاء جمعيات تعاونية للإقراض على غرار جمعيات رايفايزن، بدأها عام ١٨٨٣ في بلدة باروي، وسرعان ما انتشر النموذج في إيطاليا، وفي عام ١٨٨٨ أنشأ اتحاد عام لجمعيات الإقراض التعاوني في باروي أيضا، وأعيد تشكيل الاتحاد عام ١٩٠٨، وقد عرض وولمبورج أفكاره في مجلة أسبوعية باسم "التعاون الزراعي" يتضح منها أن جمعياته كانت تتميز بأنها ذات اختصاص جغرافي محدد، وأن أعمال الإدارة كانت تؤدى بالمجان، وأنها كانت تقوم على المسئولية التضامنية للأعضاء لتعويض ضعف رأس المال، ولا تمنح القروض إلا لعمل إنتاجي، مع ممارسة رقابة فعالة على استخدام تلك القروض، والاحتفاظ بحقها في فسخ عقد القرض

إذا استخدمه العضو على نحو يخالف شروطه، وكانت الجمعية تقوم بشراء ما يحتاجه الأعضاء من أدوات ومواد أولية بالجملة، وبيعها لهم دون أرباح، ولم تكن توزع أرباحا على الأعضاء بل كانت تحتفظ بها لتكوين احتياطي قوي غير قابل للقسمة حتى لو صفيت الجمعية، بل يحول لدعم نشاط جمعيات أخرى من نفس النوع.

obeikan.com